المحاضرة الخامسة(تابع)

الأستاذة: فوزية سعيود

ثانيا _ مفهوم الكثرة في النقد العربي القديم:

إن مفهوم الكثرة مرتبط بالقصيدة العربية المركبة أو الطويلة، وكما هو معلوم أن القصيد نوعان: بسيط ومركب، يقول "حازم القرطاجني":« والقصائد: منها بسيطة الأغراض ومنها مركبة، والبسيطة مثل القصائد التي تكون مدحا صرفا أو رثاء صرفا، والمركبة هي التي يشتمل الكلام فيها على غرضين مثل أن تكون مشتملة على نسيب ومديح»، ذلك أن القصيدة العربية القديمة تسمح بتعدد الأغراض داخلها. وهذا ما أشار إليه "ابن قتيبة" في مقدمة كتابه "الشعر والشعراء"، حيث رسم معالم القصيدة المثال أو النموذج التي لطالما سار الشعراء على منوالها، والتي بدأها بقوله:« وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها؛... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسُرى الليل وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير،... بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة...».

وفي هذا السياق نرى أن "إحسان عباس" بعدما تناول مفهوم الوحدة في النقد العربي، وحدده بوصفه التناسب والتكافؤ بين الألفاظ والمعاني، والترابط الحاصل بين الأبيات، والتسلسل في إيراد الموضوعات _ كما قرره ابن قتيبة في النص السابق_ رأى« أن نقاد العرب عالجوا الوحدة من خلال التكثر، في كل العصور، خضوعا للمثال الشعري، ولم يهتموا بأنواع أخرى من الوحدة، كالوحدة النفسية عند الشاعر، أو الوحدة الصورية، أو الوحدة العضوية».

وعلى هذا، فالنقاد العرب _ على حسب ما يراه إحسان عباس _ قد ربطوا بين الوحدة والكثرة دون الاهتداء إلى حقيقة الوحدة العضوية وإن كانت موجودة بالفعل في بعض القصائد.

وفيما يأتي سنعرض لهيكلة القصيدة العربية القديمة كما اتفق عليها النقاد القدامى، والتي تشكل في مجموعها مفهوم الكثرة، التي لا تتعلق بمضمون القصيدة بقدر ما تتعلق بشكله وبنيتها الخارجية.

1 _ المطلع:

لقد تفطن القدماء إلى أهمية الابتداءات في العمل الأدبي، وما يجب أن يتوفر عليه، وما يجب أن يحترز منه، وما يجب أن يراعى، فأشاروا إلى كل ذلك عند حديثهم عن الصناعة الفنية لكل عمل أدبي. وفي هذا يقول "أبو هلال العسكري" نقلا عن أحد الكتاب:« أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان»، ويعدّ القصيد من أهم الأجناس الأدبية التي يجب أن تحكم مطالعها، وتضبط ابتداءاتها. ولهذا نجدهم يؤكدون على ضرورة المواءمة بين مضمون المطلع وبين غرض القصيدة وموضوعها.

ويقول "ابن رشيق" في هذا الصدد:« إن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة».

فقد أعجب الأصمعي – ومن قبله أبو عمرو بن العلاء– بابتداء أوس بن حجر لقصيدة في الرثاء بقوله :

أيتها النفس اجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

« لأنه افتتح المرثية بلفظ نطق به على المذهب الذي ذهب إليه منها في القصيدة، فأشعرك بمراده في أول بيت».

من ذلك المعنى الذي انفرد به المتنبي في قوله:

أتراها من كثرة العشاق تحسب الدمع خِلقة في المآقي

قال الجرجاني معلقا على المطلع السابق:« فإنه مطلع ما سُمع مثله، ومعنى انفرد باختراعه».

وعاب الحاتمي على المتنبي ابتداءاته المتشائمة لقصائد المديح، وخاصة مدائحه "لكافور الإخشيدي" قال:« لأن كل صنف من صنوف القول يقتضي نوعاً من أنواع الابتداء وضرباً من ضروب الاستفتاح لا يصلح لغيره»، وقال: إن على الشاعر « أن يبتدئ قصيدته بما شاكل المعنى الذي قصد إليه».

من ذلك قوله:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

ومنه ما عابوه من قول جرير في عبد الملك بن مروان:

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

حيث رد عليه عبد الملك قائلا:« بل فؤادك يا ابن الفاعلة، كأنه استثقل هذه المواجهة وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه».

2 _ التخلص:

القصيدة العربية متعددة الأغراض لذلك وجب على الشاعر عند الانتقال من غرض إلى آخر أن يهتم بحسن الانتقال والخروج، خروجا ينم عن التلاحم والترابط بين أجزاء هذه القصيدة، وهو ما يعرف عندهم "حسن التخلص"، فلا يحس المتلقي بأي اختلال واضطراب في بنائها، بحيث« يكون الكلام آخذا بعضه برقاب بعض كأنه أفرغ في قالب واحد».
والتخلص نوعان: أحدهما متصل: وهو الانتقال من معنى إلى آخر، أو من غرض إلى غرض دون اعتماد واسطة لغوية معينة. بل يكون التخلص سلسا ورشيقا، وهو قليل عند

الشعراء الجاهليين بخلاف المحدثين، أما المنفصل: فهو الذي يعتمد فيه الشاعر إحدى الفواصل التالية: (دع ذا)، (عدّ عن ذا)، أو يصدّرون كلامهم بـ أنّ المشددة.

ولا بد من التنبيه إلى الفرق بين التخلص وبين الاستطراد والاقتضاب وإن كانا لهما علاقة به. **فالاستطراد** كما عرفه العسكري هو:« أن يأخذ المتكلم في معنى، فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر؛ وقد جعل الأول سببا إليه»، من ذلك قول السموأل في لاميته الشهيرة:

وإنا لقومٌ لا نرى القتلَ سُبّةٌ إذا ما رأتهُ عامرٌ وسَلولُ

فقوله: "إذا ما رأته عامر وسلول" استطراد

وأما **الاقتضاب،** أو ما يسميه "ابن رشيق" **الانقطاع،** فيعرفه "ابن الأثير" بقوله:« أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك، ولا يكون للثاني علاقة بالأول»، **كقول "البحتري":**

لولا الرجاءُ لمُتُّ من ألمِ الهَوَى لكــن قلـبي بالرجاءِ مُوكَّلُ

إنّ الرعيةَ لــم تزَلْ فــي ســيرةٍ عُمرية مُـذْ ساسها المتوكِّلُ

3 _ المقطع أو الخاتمة:

إذا كان المطلع هو أول ما يُلقى في السمع من أبيات القصيدة، فإن المقطع هو آخر ما يبقى منه، وهو أجدر بالحفظ لقرب العهد به، وإنما الأعمال بالخواتيم، ولهذا لقي اهتمام النقاد والشعراء على السواء، يقول عنه "ابن رشيق":« وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه»، من ذلك قول "لقيط بن يعمر" من قصيدته الشهيرة:

لقد بذلت لكم نصحي بلا دَخَلٍ فاستيقظوا إن خير العِلمِ ما نفعَا

وقول "تأبط شرا":

لتقرعنَّ عليَّ السِّنَّ من ندَمٍ إذا تذكّرتِ يومًا بعض أخلاقي

وقد كره النقاد والشعراء ختم قصائدهم بالدعاء لأنه من عمل أهل الضعف، إلا الملوك فإنهم يشتهون ذلك.

وفي الأخير لا بد من الإشارة إلى أن مفهوم الكثرة في القصيدة العربية يرتبط أكثر ما يرتبط بالقصائد الطوال، وموقف الشعراء والنقاد من قصار القصائد وطوالها، وعلاقتها بالأغراض الشعرية والتجربة الفنية. فقد ذكر "ابن رشيق" نصوصا عن اللغويين والرواة وآرائهم في التطويل والتقصير وعلاقة ذلك بالشاعر نفسه، وبمتلقي خطابه، فقد« سئل "أبو عمرو بن العلاء" هل كانت العرب تطيل؟ فقال: نعم ليُسمع منها. قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها... وتستحب الإطالة عند الإعذار، والإنذار، والترهيب، والترغيب، والإصلاح بين القبائل، كما فعل زهير والحارث بن حلّزة ومن شاكلهما، والطوال للمواقف المشهورات».